



برمهنا يوغاندا



مشاهد من الهند

الهند هي صورة مصغرة عن العالم في كل شيء. فهي بلد كل الأجواء والمناخات والأديان والأعمال والفنون والشعوب والمناظر واللغات والحضارات على اختلافها. الحضارة الهندية تعود إلى آلاف السنين، وقد ترك حكامها وحكامؤها وأنبيائها ومرشدوها سجلات تشهد بوجود وأصالة الحضارة الآرية في بلاد الهند والسند. الكثير من السياح الأوروبيين يزورون الهند ويشاهدون في شوارعها بعض السحرة وبالعبي السيوف والحواة من مروزي الأفاعي فيظنون أن هذا أفضل ما يمكن أن تقدمه الهند، غير مدركين أن هؤلاء لا يمثلون الهند. فحياة الهند الحقيقية وحيويتها تكمن في ثقافتها الروحية التي جعلتها رحم الأديان والمعتقدات من عصور سحيقة. صحيح أن الغرب باستطاعته تعليم الهند الكثير من الطرق الصحية وأساليب ومبادئ التجارة وتنمية وتطوير الموارد الطبيعية والبشرية. وصحيح أن الهند بحاجة إلى أرباب عمل عباقرة من أمثال هنري فورد وتوماس أديسون، لكن العالم الغربي هو أيضا ظمان شعورياً أو لاشعورياً وبحاجة إلى الدروس الروحية العملية التي تخصصت بها الهند على مر العصور.

لقد تقدم العلم كثيرا في المدن الغربية وخطا خطوات واسعة وحثيثة بحيث أصبحت احتياجات الإنسان المادية من مأوى ومأكل وملبس متوفرة ومتاحة دون كبير عناء. لكن الراحة الفيزيائية والمادية دون الراحة النفسية والسلام والعزاء الروحي لا تكفي. الهند هي مصلاح كبير وملهم للعقول والنفوس، بالرغم من عدم الاعتراف بهذه الحقيقة.

وتراث الهند الأعظم والأغنى يكمن في الوسائل والطرق الروحية التي اكتشفها علماء الروح الهنود من أصحاب الرؤى والقديسين على مدى القرون. ذلك التراث ساهم ويساهم بثقافة الإنسان الروحية العلمية.

الهند هي بلاد الأسرار، لكنها أسرار لا تفتح قلبها إلا للمتعاطفين معها، الباحثين عن الحقيقة بجد وإخلاص.

الهند تمتلك أعلى وأروع جبال الدنيا: الهملايا. أما دارجيلنغ في شمال الهند فهي سويسرا الهند من حيث الجمال الطبيعي الأخاذ. وتمتلك أطلالا قديمة لقلاع وحصون فريدة ولقصور الأمراء في دلهي، مثلما تمتلك نهر الغانج العريض والمبارك بتأمل المتعبدين والقدسين على ضفافه. ومرتفعات الهملايا فيها كهوف وخلوات التأمل حيث أبصر اليوغيون والسواميون ضباب الجهل ينقشع ويتبخر أمام نور الله وحكمته.

وتفخر مدينة أغرا في الهند بأحد روائع الدنيا ألا وهو صرح التاج محل ذروة الفن المعماري الإسلامي وأجمل أحلام البشر المجسدة في الرخام الصقيل والمرمر البديع تخليدا للحب البشري.

وفي الهند أيضا غابات داكنة وأحراش كثيفة حيث تصول النمر والأسود، كما تتمتع الهند بسماء زرقاء تزداد روعة وجمالا عند الأصيل حيث تتحول أشعة الشمس إلى كتلة من اللهب البرتقالي المشتعل. وفي الهند أيضا صنوف وألوان لا حصر لها من الفواكه والخضروات الشرقية وأجناس عديدة من البشر، وكلها تتضافر لتجعل من الهند بوتقة مدهشة عجيبة رائعة تعصى على النسيان.

الهند هي أرض التناقضات الكبرى، حيث الغنى الفاحش والفقير المدقع، وحيث ذروة النقاء العقلي والحياة العادية الخشنة. في الهند سيارات الرولز رويس والعربات التي تجرها الثيران، مثلما فيها الفيلة ذات الهودج المزخرفة والعربات الفخمة التي تجرها الخيول المطهمة.

في شمال الهند نجد أناساً ذوي عيون زرقاء وشعور شقراء، أما في الجنوب الأكثر حرارة فنبصر البشرات السمراء التي لاحتها حرارة الشمس الاستوائية. فمن البداية وحتى النهاية نجد أن الهند هي بالفعل بلد المفاجآت والتناقضات. الحياة تصبح مملة إن هي سارت على وتيرة واحدة. أما في الهند فيشعر الشخص أن الحياة مغامرة كبرى ذات مفاجآت وأسرار لم تخطر على البال من قبل.

قد لا تمتلك الهند ناطحات سحب مادية ولا وسائل ترف وترفيه عصرية زائدة ترهق الأعصاب الروحية. صحيح أن للهند عيوبها كما لكل الأمم عيوبها، لكن الهند تمتلك ناطحات سحب روحية: عمالقة روح يتحلون بالتواضع والواقعية وباستطاعتهم تعليم إخوتهم في الإنسانية كيفية استخلاص الفرح الروحي الكامل من أي ظرف من ظروف الحياة.

وهؤلاء الصوفيون ذوو الأسس العلمية الذين عرفوا الحق والحقيقة بجهودهم وتجربتهم الذاتية، وليس من خلال معتقدات عادية غير محصنة، يمكنهم مساعدة

الآخرين على تطوير بصيرتهم الذاتية واستخراج مياه السلام والرضاء المنعشة
والمحيية من تربة حياتهم اليومية.



عند الغروب

عندما زار المعلم برمهנסا يوغانندا المكسيك سنة ١٩٢٩ قابل رئيس المكسيك آنذاك بورتيس جل الذي أعرب للمعلم الكبير عن رغبته في رفع المستوى الروحي لوعي الشعب المكسيكي. وقد قال في حديث له عن برمهנסا يوغانندا: "إنني أكن له كل الإحترام والتقدير... لقد راسلته على مدى سنين طويلة وتبادلت معه الآراء حول مواضيع شتى. وكانت رسائله بالنسبة لي مصدر إلهام وعونا كبيراً. ورحيله كان خسارة فادحة للإنسانية."

وقد أكد برمهנסا يوغانندا أن الفهم والثقافة الروحية وحدهما قادران على توحيد الأمم والشعوب وإزالة العوائق من بين الأخوة في الإنسانية المسافرين على دروب مختلفة نحو غاية واحدة.

الحديث بين الرئيس والمعلم كان ممتعاً للغاية، وقد أخذت لهما صور أمام القصر الرئاسي وظهرت تلك الصور في اليوم التالي للزيارة مع مقالات مستفيضة في كبريات الصحف المكسيكية. وقد قام اثنان من حراس القصر بمواكبة المعلم أثناء تجواله في أركان القصر وحدائقه الغناء. والقصر الذي كان قائماً آنذاك على تلة مرتفعة تطل على مساحات خضراء ذات مغارس بهيجة كان يتميز بفخامته ذات الطابع الشرقي حيث الجدران الرخامية والسقوف المذهبة والجو الديمقراطي المنعش.

وقد استمتع المعلم أيما استمتاع بمناظر المكسيك الخلابة، لا سيما بحيرة تشابالا الرائعة التي ألهمت إحدى قصائده التي تحمل ذلك الاسم الجميل. وأثناء إقامته السعيدة في ذلك البلد المضيف صادق الكثيرين من أهل المكسيك الطيبين وأخذت له صور متحركة في العديد من الأماكن التي زارها والتي ذكّرته - مثلما ذكّره شعب المكسيك الصديق - بوطنه الأم الهند ووجدهم مستعدون لتقبل تعاليم الروح وقد قال في هذا الصدد: 'المكسيكيون ذوو ميول روحية والمجال فسيح ومتاح لتقبل رسالة معرفة الذات.'

وفي مدينة غوادالاهارا (وادي الحجارة) جلس المعلم للتأمل فأبصر رؤية صوفية
أثيرية وصفها وصفاً دقيقاً ومؤثراً وأعطاه عنوان:

عند الغروب أو رؤية أثيرية في وادي الحجارة

من شرفتي رنوت ببصري نحو الغرب، فانطلقتُ على أجنحة الخيال ووقفت على
شواطئ الأفق البعيد. وقد أبصرت عن يميني وشمالي سلسلتين من الجبال ما لبثتا أن
تحولتا إلى لون بنفسجي غامض. وعندما أعدت النظر إليهما كانت يد خفية قد غلفتها
بغلالة من اللون الأزرق الغامق. وكانت تقبع خلفي مدينة وادي الحجارة المغمورة
بشفق الغروب. أما السماء الشرقية فقد باتت موشحة بألوان وردية خفيفة. وإذ تطلعت
إلى الأمام أبصرتُ عيناى مدينة سحرية من الجزر الزرقاء السابحة في بحيرة من
ذهب.

وفي أرخبيل الجزر الزرقاء السحرية هذا برزت تلة ضخمة من الكلس الأزرق كانت
تحيط بها سحب بركانية بلون أبيض رمادي وهي تقذف فوارات من حمم بلون الذهب
الأحمر الوهاج، تتساقط مائلة كقوس قزح نحو البحيرة الساكنة. أما الذهب الذهبي
الكثيف فقد أحاط الجزر الزرقاء بهالات ضوئية مشتعلة.

القمة الزرقاء وتاجها اللهبى انعكسا كتوأمين على صفحة تلك البحيرة الذهبية
الصامتة. وإلى أقصى اليمين كانت بحيرة هادئة صغيرة مشعشة وقد توسدت صدر
إحدى الجزر الزرقاء كالبدن السابح وسط أمواج الغيوم.

لقد تجولتُ طويلاً في مدينة الغروب والغيوم السرابية، عائماً على سطح البحيرة ذات
الضوء الذهبي الرقيق. ويا لروعة تلك المياه الذهبية المرصعة بعناقيد الجليد الحمراء
المنتشرة في كل اتجاه حتى حافة الأبدية.

خِلْتُ أن حوريات صغيرة من النور كانت أرواحاً طيبة على هذه الأرض، وبعد اجتيازها
بنجاح كل امتحانات الحياة سُمح لها كي تمرح وتجسد أحلامها حسبما شاءت. كل يوم
عند ساعة الغروب كانت تلك الحوريات تكثف أحلامها السماوية في مدن أثيرية تحيط
بها بحور وبحيرات من ذهب. هناك وخلف قبضة الأحزان وما وراء مصائد هذا العالم
الأرضي بما فيه من مأس وآلام.. هناك ما وراء المنغصات كانت تلك الكائنات تتنفس
أضواءً حمراء وتشرب أشعة برتقالية وتتأى وتدنو وتسرح وتسبح في خضم أنوار
متعددة الألوان.

هنا كانت تلك الحوريات تحقق أحلامها وتجسد خيالاتها على الفور مثلما تريد، ثم
تذيبها وتلاشيها بإرادتها.

هنا كانت تنعم تلك الكائنات بكنوز القناعة والرضى وتجدد بتحقيق أحلام كل من
يزورها في عالمها السحري العجيب.

هنا لم يحتم عليها الإنتظار والتمني كالبشر كي تتحقق أحلامها وتدرك أمانيتها، بل حلمت كما شاءت وحققت كل تلك الأحلام والأمانى بمحض إرادتها.

مدينة الغروب تلك في جزر الأحلام كانت حلماً من أحلامي المتناومة في طيات اللاشعور وقد تحقق اليوم أيما تحقيق. حقاً لقد أبصرتُ كنوز روجي الدفينة وذخايرها المخبئة فغمرني نورها وبهرني سطوعها!



شمس الوعي الكوني

ظهرت هذه المقالة للمعلم برمهنسا يوغانندا في العدد الأول من مجلة الشرق والغرب لعام ١٩٢٥. وهذه المجلة التي أصبحت تعرف فيما بعد بمجلة معرفة الذات تأسست لغاية واحدة وهي تقريب الشعوب من بعضها وإظهار أفضل ما تتحلى به الأمم من ميزات وخصائص فريدة ساهمت وما زالت تساهم في بناء الصرح الإنساني العظيم على هذا الكوكب الأرضي.

وقد عمل المعلم الكبير على مدى سنين طويلة لتعزيز روح المحبة وأواصر الإخاء بين الناس وتشجيع تبادل الخبرات والخيرات فيما بينهم بما يساهم في جعل الحياة أكثر روعة وجمالاً وأعمق معنى ودلالة. وفي هذا الصدد يقول:

يجب أن ينسينا جوعنا للمعرفة كل فوارقنا الطفيفة ويستحثنا لأن نتقبل بسرور الحقائق من الآخرين. فليستعد الشرق والغرب لتبادل أفضل ما تمتاز به شعوبهما، فكل الناس أخوة وكلنا أبناء الوطن الكوني الواحد.

شمس الوعي الكوني

جلستُ على تلة صغيرة بعينين مغمضتين ورحتُ أرمق الظلام الدامس الذي كان يغلفني. فلم أبصر في البداية شيئاً سوى الظلام، ومع ذلك كنتُ أبحث عن شيء مجهول لكنه مألوف ومعروف في نفس الوقت.

فتحت عينيّ ورحتُ أتأمل الدنيا الرائعة البهيجة المزدانة بصفحةٍ لا بداية لها ولا نهاية من ضياء بدر ونجوم متغامزة في قلب الفضاء السحيق وحقول وروابي باسمه ذات

حشائش سندسية بلون الزمرد ونعومة المخمل، وسلاسل متألقة من الجبال وأمواج متواثبة فوق بحار هائجة، ومدن تفخر وتزخر بما توصل إليه الإنسان من إنجازات ومخترعات لا تعد ولا تحصى. وكل ما رأيته بعين عقلي راح يلومني على صرف وقتي في التأمل ويتهمني بأنني حالم وسابح في دنيا الخيال.

وقال لي العالم 'لماذا يا هذا تغلق عينيك وتقصي جمالي عن بصرك وتعيش في ظلمة مفرغة وفراغ مظلم؟'

فأجبتة همساً: 'أيها المقتحم المتجاسر، لولا الجمال الباطني لما كان لجمالك من رونق أو رواء!'

وما أن مرّت هذه الخاطرة في بالي حتى أحسست بنداء خفي من ركن عميق داخل روحي فارتعشت أحاسيسي وانتعشت خلايا جسمي.

أغمضت عيني من جديد لأرى بحراً من الظلام فرحتُ أمعن تحديقاً في قلب الديجور الحالك بحثاً عن وميض لضياء كنت أعلم أنه موجود وما عليّ إلا أن أفتش عنه حتى أعثر عليه. وفجأة أبصرت فكراً شبه مضيء بازغاً من إحدى زوايا تلك الحجرة السرية العميقة. كثفت تركيزي على تلك الفكرة الخافتة فراحت تتألق أكثر فأكثر حتى أظهرت مجدها المخبوء.

ولقد اكتشفتُ أن باستطاعتي أن أبصر هناك دون عيين وأن أرى كل فكر مشع كالبرق الذي يلتمع ثم يختفي، أو يسطع كسرب من الشهب الغزيرة الوماضة فتطلق رذاذاً من ضياء يظهر فجأة ثم يختفي في سماء عقلي، فاستطعت أن أعدّ كل ومضة.. كل قبس وأن أدرك المقدار الزمني والطاقي لكل منها، ويا لها من رؤية ما ورائية مجيدة. ولقد تمكنت أيضاً من السماع دون أدني فرحت أصغي لصوت أفكاري الخافتة والهادرة بكل وضوح. أجل استمعت لإحياءات الضمير الخفيضة ولصوت الحكمة الصامت. لقد سمعت بوضوح كل ما قالته تلك الأصوات كما لو لم أسمع من قبل. ولأول مرة شعرت بحضور هؤلاء الأقرباء الباطنيين غير المرئيين.

هؤلاء الأقرباء الذين عاشوا في أعماقي منذ أمد بعيد في حجرات مظلمة يخططون وينسقون ويصوغون قدري. ومع ذلك ظلوا متوارين، متواضعين، محتجبين كأن لا حضور لهم ولا وجود.

يا لها من أعمال جبارة تنجزونها أيها الأقرباء والأصدقاء الباطنيون! لماذا لا تظهرون بكل جلاء ووضوح؟

أتخيفكم نظرات العقول البشرية الفجة الخشنة؟ أم لعلمك تخشون الظهور في الشفق الباهت للعقلنيات التي لا تحسن التفكير الرقيق الراقى! بل لربما ترهبون الاختناق من اهتزازات المادة الكثيفة العنيفة!

ومع ذلك ما أبرعكم في التسلل من الحجرات المظلمة لبناء ناطحات سحب وجسور جبارة وكل الإنجازات المادية على اختلافها، ثم تعودون دون أن يلحظكم ملاحظ أو

يحتفي بكم محتفياً!

القطار المندفع في ظلام الليل، والطائرات الهادرة، والسفن الجبارة العائمة كالقري على سطح المحيط، وروائع الفن ومعبد أثينا العذراء البارثينون والتاج محل.. كلها معجزات من صنع الإنسان، وكلها تذكرني بكم وبقواكم المستوحاة من الفكر الجبار! ولكن عندما أبصر البحيرة ذات المياه المشعشة تدعوني كي أروي ظمأي، والغيوم الداكنة التي تطلق أنهاراً وشلالات من الأمطار لتروي الحقول والأشجار ذات الثمار الحلوة الشهية.. وعندما أرى نور البدر وقد اشتعل عند حلول الظلام، وألاحظ دورة الفصول، والأرض وقد اكتست ببساط من العشب سميك، والسحب الحمراء المرتسمة أشكالاً بفعل الشعاع على ستارة الأفق.. كل هذه الصور البديعة التي لا يمكن محاكاتها أبصرها فأتأمل تلك اليد الكونية التي تعمل بقوة وحكمة في كل مكان!

وأفكر مندهشاً بذلك الصوت الكوني الذي يأمر الشمس والقمر والكواكب والأرض والطبيعة والفصول وكل القوى العمياء والبحار ذات المد والجزر والإنسان والحياة والموت فتسمع صوته وتبذل له الطاعة.

ترى هل هناك من ركن خفي لا حد له ولا نهاية حيث تحتجب الأفكار المضيئة وتعمل عملها في الكون دون أن يلحظها أحد؟

لقد نظرتُ عبر نوافذ الذاكرة فتذكرتُ بواكير طفولتي، عندما بزغت شمس وعيي في سماء حياتي. وعندما ارتفعت تلك الشمس آنذاك ببطء من ظلمة العقل الباطن لم تضء سوى جزء بسيط من أفق عقلي، فلم أبصر سوى أمي وألعابي وبعض قطع الحلوى ذات الألوان المختلفة.

فيما بعد عندما أصبح وعيي أكثر إشراقاً أبصرت جزءاً أكبر من أفقي العقلي إذ أصبح مضيئاً ورأيت فيه أشياء كثيرة لم أبصرها من قبل. أبصرت أصدقائي وأقرباني وجيراني وبلدي.. كلها ظهرت وأصبحت مشمولة في مجال رؤيتي.

وفي سماء فكري سطعت شمس وعيي سطوعاً ثابتاً وقوياً فأثارت كل ما كان محتجباً من قبل، فأبصرت كل الناس وكل الأمم وكل الكائنات والطبيعة والكواكب والنجوم وكل الإلكترونات المشعة. بل أبصرت الأكوان والفضاء اللامتناهي!

وما كنت أعرف قبل ذلك أنني سأكتشف في ظلمة عقلي شمس الوعي الكوني!

المصدر: تجارب روحية

للمعلم: برمهنا يوغانندا

الترجمة: محمود مسعود